اسماعيليات أبي النصر [1]

للأستاذ السباعي بيومي

تمهيد

من أبو النصر ؟ وما الاسماعيليات ؟

أبو النصر مصري عربي قرشي حسيني نشأ أوائل القرن الثالث عشر الهجري حيث كان يقيم أهله وذووه بمدينة منفلوط من أعمال مديرية أسيوط ، فحفظ القرآن وتعلم مبادىء العلوم ثم نزح منها إلى الأزهر الشريف بقاهرة العز يلقن الشريعة ويدرس العربية ، فبدت عليه مخايل الأدب والاستعداد لقرض الشعر ، ولكنه استمر في الطريق المرسوم إذ ذاك للدراسة الأزهرية حتى صار من كبار العلماء الذين امتازوا فوق عليتهم الدينية والعربية بالمقدرة على انشاء النثر الجيد وقرض الشعر الأجود ، فزاد ذلك من مكانته وعظم من شأنه حتى ان المغفور له محمد علي باشا الكبير والي مصر لما طلب اليه السلطان عبد المجيد أن يبعث الى القسطنطينية بعض العلماء مع الأمراء ليشاركوا عظمته في الاحتفال باعذار أنجاله كان السيد علي أبو النصر ثاني اثنين أرسلا من العلماء ولم يكن الأول إلا الشيخ التميمي الحنفي مفتي الديار المصرية إذ ذاك ولعل هذا كان بحكم وظيفته ، وكان ذلك سنة ١٢٦٢ هـ ، ومن هذا نبه شأن أبي النصر وتوثق اتصاله بالبيت العلوي باقي أيام محمد علي ، وكان من المعجبين بأعماله المغتبطين باصلاحاته لأنه كان رحمه الله كما قال فيه أحمد خيري باشا ناظر المعارف العمومية وهو يقدم لديوانه ومحبا لنشر أنوار التربية في الوطن وسكانه ،

---

(١) محاضرة ألقيت في نادي دار العلوم يوم الاربعاء ٢٧ من يونيه سنة ١٩٤٥

مشوقا محرضا فى ذلك بكل ما كان فى امكانه ، وكان فى حب الوطن بأعلى مكان ، يحب أن يراه قبل موته مكرما مسموع الصوت ، ذا حرية معتدلة ، وقوانين عادلة ، ورعاية حقوق لجميع أهله شاملة ، ولم يكن محمد على إلا عاملا فى سبيل ذلك كله بهمة لا تعرف الكلل ، وعزم لا تعتريه سآمة ولا ملل ، ولهذا أصبح أبو النصر شديد التألم بادى الحسرة والتبرم حينما وقفت هذه الحركة الدائبة أيام عباس وسعيد ، وكان لا يزال يقول « إلام تنحرف عن سواء الطريق ، وحتام فى سكرة الغفلة تهيم ولا تفيق ».

ولكن كان من فضل الله عليه وعلى مصر أن ذلك العهد لم يطل إذ تولاها عزيزها اسماعيل ، فسره وأرضاه أن تنفخ فى تلك الحركة من جديد فأعاد فتح ما كان أغلق من مدارس أنشأها جده وأخذ ينشىء كثيرا غيرها فى كل فروع التعليم حتى غصت القرى بالكتاتيب ، وبلغت المدارس الابتدائية بالعواصم ٢٣ ووسعت الثانويتان وهما الخديوية بالقاهرة ورأس التين بالاسكندرية كل من يريد التجهز للتعليم العالى كما بلغت المدارس العالية ٤ والحربية ٨ والخصوصية ٥ والصناعية ٤ ، ثم فطن الى ضرورة تعليم البنت على كراهية الشعب لتعليمها فأوعز الى حرمه چشم أفت هانم أن تؤسس مدرسة السيوفية للبنات فأسستها واحتضنتها وكان يحضر معها الاحتفال بامتحاناتها حتى صار عدد تلميذاتها ٤٠٠ ، وقد هم ينهض بمصر من نواح أخرى ذات شأن ، فحول ديوان المعارف الى نظارة ، وأنشأ دار الكتب ودار الآثار العربية ، وعنى بمطبعة بولاق ، كما أنشأ المدرج العام للمحاضرات بدرب الجماميز ودار الاوبرا للتمثيل ، والجمعية الجغرافية ، وأكثر من البعثات وشجع الصحافة وقرب الأدباء فخلق بذلك كله دولة للأدب فى مصر تفيأ ظلالها المصريون والسوريون وتنقل على أقنان دوحتها الكتاب والشعراء ، فكان صاحبنا أبو النصر أكبر مشيد بهذا الفضل ، وأعبق معطر لأشعاره بفوح ذلك الذكر ، وما أحس اسماعيل منه ذلك حتى قربه اليه وأدناه ، وجعله على الرأس من أدباء وقته وشعراء عصره ، وباهى به وبمصر أدباء دار الخلافة وشعراءها حين استصحبه معه فى رحلته العظيمة إلى القسطنطينية سنة ١٢٨٩ ، فقد طاب اليه وقد وافق دخولهم الاستانة فى هذه الرحلة عيد جلوس السلطان عبد العزيز إنشاء قصيدة فى مدحه وتاريخ عيد جلوسه فأنشأ

رائيته الباسقة التى منها .

تبسمت الأزهار عن اؤلؤ القطر ففاح شذاها فى الحدائق كالعطر
وخط يراع الغصن إذ مال ظله بشائر قد لاحت على صفحة النهر
وزفت بروض الابتهاج عرائس لها كلما ماست يثار من الزهر
وغنت على عود الأراك حمامة تجاوب إلفا شفه ألم الهجر
تجاذبه بالطوق طورا ، وتارة تطارحه شكوى الغرام فلا يدرى
وبالشمس طاف البدر ، فاستجلها ضحى
وان شئت لاتسأل عن الشمس والبدر

وواصل جواد الجد واسلك سبيله وصابر فان المرء يعرف بالصبر
وشد نطاق الحزم فى كل رحلة ونقل ركاب العزم فى البر والبحر
ولج كل فج وانتهز كل فرصة وعول على الاقدام فى السير والجهر
ولا تخش ارهاص الحوادث واتئد ودعها كما قالوا سماوية تجرى
وعرج على دار الخلافة كى ترى جمال محياها ومنظرها البدرى
وصف ما تعالى من بديع صفاتها وحدث بما تهواه عن دمية القصر
ودعنى من الدنيا سواها فاننى سلوت السوى لولا اشتياقى الى مصر
دخلت حماها يوم عيد جلوسها فقابلتها بالشكر منشرح الصدر
وسرحت فى تلك البدائع ناظرى فملت الى خلع العذار بلا سكر
ولاحت لأنس العيد أجمل زينة ترنح أعطاف المليحة فى الخدر
فبت على حال تسر أولى النهى أنزه أفكارى الى مطلع الفجر
وأصبحت لاأهوى سوى مدح ملكها وذكر مزاياها وجناتها الخضر
مليك اذا لاحت كتائب جنده ترد شياطين الغواية بالقهر
خليفة خير الخلق من باجتهاده غدت عصبة الاسلام مشتدة الأزر
أفاد العلا جاها وعزا مؤبدا وألبسها من مجده حلل الفخر
وأحيا لاحياء العلا كل دارس فأضحت قلاع الثغر باسمة الثغر
وجدد فى عهد قريب بواخرا بها قوة الاسلام محكمة الأسر

له الله كم أبدى وأبدع فكره مآثر تدعونا الى الحمد والشكر
وان قيل فى التاريخ فضل لسابق فعبد العزيز الآن أسبق للبر
فهنيه بالبشرى سرورا وبهجة بعيد جلوس سره أبدا يسرى
وهأنا فى البشرى أقول مؤرخا جلوسك عيد الدهر أم ليلة القدر

فهذا الشعر الذى اختص به أبو النصر اسماعيل العظيم فى كثير من المناسبات والذى سجل فيه أعماله الخالدة فى كثير من المشروعات ، هو الذى نعنيه بالاسماعيليات وهو الذى نقف اليوم لنتكلم عنه تنويها بذكر شاعر عظيم وتخليدا لاعمال مصلح كبير أحيا موات مصر ، وجعلها بعبقريته درة لامعة على جبين الدهر .

١ ـ أبو النصر ومنشآت اسماعيل

كان أبو النصر معجبا كل الاعجاب بالهمة الشماء التى كانت لإسماعيل فى نشر التعليم لأنه كان كما قال خيرى باشا عنه آنفا « يحب نشر أنوار التربية فى الوطن » ومن ثم كان كما قال عنه « يستحسن مدرسة الاقباط بمنفلوط ويقول ، ان التربية ستسعدهم وتصعدهم وترقيهم من الهبوط ، وقد حقق الزمن قوله ولعله لهذه الغيرة منه على العلم ابتنى مدرسته الجميلة بمنفلوط بجوار جامعه الجليل كما ابتنى عدة منازل حبس ريعها عليهما ، وكأنه كان بهذا يشارك نهضة اسماعيل التعليمية بقدر ما أوتيه من مال ، ولقد كان هذا العمل مقدرا له من اسماعيل أوفى تقدير ومشجعا عليه من قبله أكبر تشجيع وفى ديوانه مقطعة شعرية تنبىء عن هذا التقدير والتشجيع وماله من مكانة فى نفس اسماعيل نعنى بها الابيات التى قالها وقد شرفه الانجال الامراء توفيق وحسين وحسن بمنفلوط سنة ١٢٨٤ صحبة مراد باشا وعبد الله بك فكرى وسالم بك سالم فقال موريا بهؤلاء ومؤرخا تلك الزيارة المشجعة الميمونة وكان ذا ولع شديد بالتاريخ ومقدرة عظيمة عليه .

يا من سألت عن الاماجد من ومن أبشر بما ترجوه من فيض ومن
وخذ الجواب كما تريد مهذبا فتكون ذا جاه وتحظى بالمنن
توفيق باشا لن يزال محمدا بين البريا والحسين أخو الحسن

فى طالع الاسعاد أشرق نجمهم حازوا المعارف وارتقوا فى كل فن
فهم الكواكب والخديوى بدرهم سعدت به الأوطان وابتهج الزمن
والفرع يتبع فى المكارم أصله عملا بأن الفرض تتبعه السنن
لمرادهم يسعى الزمان ، ومدحهم فكرى به يسلو عن الرشأ الأغن
لازال ركبهم مصونا سالما من أعين الحساد سار أو اطمأن
جعلو السياحة للسماحة مظهراً فبدت عوائدهم على أعلى سنن
وبمنفلوط أتوا فقال مبشرى أرخ فبالأنجال تشريف الوطن

وبعد فقد جاء شعر أبى النصر سجلا لكثير من منشآت اسماعيل يشيد بها ويه ويؤرخها فى زهو واختيال ،هذه فبريقة مغاغه التى انشئت سنة ١٢٨٠ يقول فيها مفاخرا مصانع أمريقه وكان يشرف عليها ولى العهد توفيق

أحيا العزيز الخديوى ملكه فبدت فيه بدائع لاتلفى بأمريقه
وفى مغاغة أنشأ بنية عظمت فى عصرها وحباها الله توفيقه
فبريقة طالع الاسعاد أرخها فاقت بأسنى المبانى كل فبريقه

ولما أنشأ اسماعيل مجالس الاقاليم سنة ١٢٨٦ تحقيقا للسير بالشعب نحو اشتراكه معه فى الحكم وتوطئة لايجاد الحياة النيابية التى أوجدها بعد سرت بذلك عيون وانشرحت له صدور ووقع هذا من شاعرنا الموقع السار للنفس المثلج للفؤاد لانه كان كما قال عنه خيرى باشا فيما سبق « يحب أن يرى الوطن قبل موته مكرما مسموع الصوت ذا حرية معتدلة وقوانين عادلة ورعاية حقوق لجميع أهله شامله » فحين توجه الخديوى الى الوجه القبلى فى ٢٧ من رمضان السنة المذكورة ليقاد رؤساء تلك المجالس من أعيان البلاد المستنيرين وظائفهم هذه وبعضا من وظائف المديرين ونظار الاقسام قال أبو النصر يشيد بذلك ويؤرخه

عنايات العزيز بملك مصر لأهل القطر جاءت بالمفيد
أفادتهم فخارا لايضاهى فصار الملك فى خلق جديد
دعاهم للتمدن فاستجابوا ومن اسعاده اقتبس الصعيد
فشرفهم وقدم ساكنيهم وقلد بالمكارم كل جيد

وحيا فى ليال اقدر حيا فكان قدومه بيت القصيد
وحكم من يليق من الاهالى وأرشدهم فيانعم الرشيد
وأقصى مايود رضا الرعايا وأحسن مايحب ومايريد
وللاوطان أسعف بالامانى فصار القطر كالعقد الفريد
وحاز من المحاسن كل معنى فأبدى البشر والفرح المزيد
وأصبح كل يوم فيه عيداً فارخ ، فى نظام الملك عيد

وحينما طاف الخديوى أقاليم الوجه البحرى لهذا التقليد عينه بعد رحلة الصعيد قال قصيدة محبوكة الطرفين مطلعها

ألملك مصر معادل ونظير ولمن يقاومه يد وتصير

ومنها

قام العزيز به على قدم الوفا بحقوقه ، وشئونه التدبير
وتوجهت أفكاره لذوى النهى من أهل هذا القطر حيث يسير
فأعد للأحكام من أعيانهم واختير منهم ناظر ومدير
شكرت رعاياه جميل صنيعه إذ صار منهم حاكم وأمير
والقطر فاضل ماسواه مباهيا بمليكه اسماعيل وهو جدير
ملك رعاياه تطير لأمره طوعا وليس لعزمهم تقصير
ملك جزاه الله عن أوطانه خير الجزاء وإنه لقدير
وأتت له الآمال وهو مظفر فمسيرها حقا عليه يسير
وسعت له العليا تهتف باسمه وتكاد من فرح اليه تطير
والسعد للاقبال أنشد قائلا ألملك مصر معادل ونظير

ولاسماعيل فى هذه السنة أثر خالد على الدهر هو تجد يده مقياس النيل بأسوان على يد محمود بك الفلكى بعد اندثاره نحو ألف سنة ولم يفت أبا النصر أن يشيد بهذا العمل الجليل و بالفلكى ويؤرخه بهذه الابيات .

حق على أسوان تبدى شكرها لمليك مصر الداورى اسماعيل
أحيابها المقياس بعد ذهابه بتجدد التقسيم والتعديل

من بعد ألف وهو فى حجب الثرى أبدى معالمه بخير دليل
الماهر الفلكى محمود الذى جلت معارفه عن التمثيل
أبقى النقاسيم التى وجدت به وبغيرها حلاه للتعديل
قالت له أسوان فى تاريخها أرقيت بالمقياس بحر النيل

وفى سنة ١٢٨٨ تمت إقامة القناطر على الترعة الابراهيمية بديروط فكان لها فى التحكم فى المياه والتمكين من الزراعة فى عدة مديريات الشأن الخطير وهنا قال أبو النصر ينوه بهذا العمل الجليل الخطير موريا بأسماء مهندسيها اسماعيل بك وسلامه بك وبهجت باشا ومؤرخا .

أحيت عنايات الخديوى ملكه فسما بطالع سعده التنظيم
وأفاد بحر النيل حسن تصرف حتى ارتوى بالراحة الاقليم
وأراد ثروته فأحكم ترعة أبدى حلى عنوانها ابراهيم
وبنى بديروط القناطر موردا تقسيمها قد زانه التعميم
فكأنها جبل بذروته بدت آثار مصر حادث وقديم
وبرسم اسماعيل بعد سلامة وافى بهجة شكلها التتميم
لمليكنا اسماعيل فى إنشائها فضل يدوم به له التعظيم
عمت منافعها فقلت مؤرخا ان القناطر نفعها التقسيم

ولما جدد الخديوى باب المقام الزينى سنة ١٢٩٤ قال أبو النصر هذه الابيات مؤرخا بها تلك القربى له إلى الله وهى منقوشة على الباب المذكور .

من آل طه التمس ما تبتغى فيهم ينال أقصى الامانى كل ذى أمل
ولذ بباب تسامى فى العلا شرفا فكان كعبة إمداد لكل ولى
حيث الخديوى اسماعيل جدده نور القبول به كالشمس فى الحمل
حب النبى وآل البيت أرخه باب شريف حوى بنت الامام على

ومما ينتظم فى هذا السلك سلك منشآت اسماعيل عنايته الفائقة بترقية مصانع النسيج وتخريج الصناع المهرة فى نقشها وزخرفتها، حتى إذا ما أقيم لها معرض النسا سنة ١٢٨٩ أمر رحمه الله مصطفى بك العنانى القائم على مصنع الخيام وسائر

المنسوجات السنيكة بصنع خيمة ترسل إلى هناك لتكون أعجوبة المعروضات فصدع بالأمر وصنع خيمة ذات جوانب أربعة غير جانب الباب فكان من حلاها خمس مقطعات وثمانية أبيات من شعر أبى النصر رسمت عليها بالخط الجميل، فأما المقطعات فقد كتبت أولاها على الصدر الذى فيه الباب وفيها التاريخ واسم المشرف على صناعتها المذكور وهى :—

عادات مصر صنائع وبدائع تحلو برسم زانه الاتقان
زادت بأيام الخديوى بهجة فى معرض سارت به الركبان
فلصطفى بك العنانى أرخوا فى المحفل الاسمى ارتقى صيوان

وكتبت ثانيتها على الجانب المقابل وفيها تاريخ أيضا وهى :

ياذوى الأبصار كم يبدو لكم من أيادى مصر صنع يستجاد
هـذه آثاره تروى الثنا عن خديوى مصر من أحيا البلاد
خيمة باهرة قولوا لمن أرخوها بحلوا ذات العماد

وكتبت الثلاث الباقيات على الجوانب الثلاثة الأخرى وكلها محبوكة الطرفين

فأولاها

بأفق المعالى وروض السرور تبدت شموس ولاحت زهور
ونادى بشير الصفا قائلا صدور الأعالى أعالى الصدور
ومن صنع مصر بدت خيمة تحلت حلاها بعقد البدور
فصفها سميرى فقد أشرقت بأفق المعالى وروض السرور

وثانيتها

طالع الاسعاد أبدى الابتسام ياندمى قم بنا نحو الخيام
واسقنى راح المنى فى معرض بالبها يختال فى أحلى انتظام
محفل كم تزدهى أقماره بشموس المجد فى أعلى مقام
حاز بالابداع ما يسبى النهى من صناعات بها ذو اللب هام
طالما أهدى له أتحافه كل قطر وحباه ما يرام
وبه من مصر لاحت خيمة أحكمت أشكالها حسب المرام

خيمة تزهو على أمثالها ذات حسن فادخلوها بسلام
واشكروا صنع الخديوى كلما طالع الاسعاد أبدى الابتسام

وثالثتها

أعد نظرا تجد صنعا جميلا وهأنا قد أقمت لك الدليلا
لمصر محاسن فى كل فن أرى لبيانها شرحا طويلا
وفى التاريخ لو حدثت عنها لما ألفيت ثم لها مثيلا
هى البلد التى حسنت حلاها وأهدت غيرها خيرا جزيلا
صنائعها تدل على علاها ولا زال العزيز لها كفيلا
خديوى مصر من حاز المعالى فأضحى ملكه ظلا ظليلا
أدام الله نعمته عليها مخلدة به جيلا فجيلا
وإن أنكرت ما يعزى اليها أعد نظرا تجد صنعا جميلا

وأما الأبيات الثانية فقد نقش كل منها على علم من أعلامها الثانية التى كانت ترفرف فوقها ، ولم يخل بيت من اسم يرادف اسم العلم مع التنويه بالخديوى أيضا فقد نقش على الأول منها

خديوى مصر أولى بالمعالى وأشرف من تقسام له البنود

وعلى الثانى

إذا الأعلام بالبشرى تبدت أجبناها بشكر للعزيز

وعلى الثالث

برايات التشكر قد أشرنا إلى فضل العزيز أبى الفداء

وعلى الرابع

لما علا عدل الخديوى وارتقى فى ملكه رفعت لها الأعلام

وعلى الخامس

رايات اسعاد العزيز ومجده بفخاره بين الأماجد شاهده

وعلى السادس

بيارق إشراق العزيز أبى الفدا لمظهره الأسمى يشير بنانها

وعلى السابع

لاحت بدور الملاقى معرض بهج فكان بدر الخديوى مفردا علما

وعلى الثامن

إذا ما راية الاسعاد لاحت رفعنا للخديوى ألف رايه

ولقد كانت عناية اسماعيل بمكانة مصر وتقوية جيشها مما يطرب له أبو النصر كل الطرب وتأبى عليه شاعريته الا تخليده فى شعره ، فكم شاد بالجيش المصرى وفتوحاته فى عجب وخيلاء ، وليس المقام بالمتسع لايراد طواله فى هذا المقام ، إنما الذى يحلو لنا أن نجلوه هنا مقطعة يسيرة تحدث فيها عن جند اسماعيل فى فتح دارفور سنة ١٢٩١ هـ لأن تلك الحملة كانت لتحقيق عمل إنسانى نبيل هو القضاء على الرق والاستعباد الذى كان يناصره ويعمل له سلطان دارفور ، قال مفاخرا بجند مصر ومباهيا بعمل اسماعيل ومؤرخا ذلك فى آخر مايقول .

سمر الرماح إذا لاحت كديجور جلت حلاها علينا البيض بالنور
والشهب تسبق دهما فى تراسلها كأنها آنست من جانب الطور
وللسهام إصابات لمتئد وقوس من لايبالى غير موتور
وكل من يدعى ما ليس يحسنه ضاعت مساعيه فى غى وفى زور
فانظر هديت طريق النصح مافعلت رجال مصر بحزب غير منصور
غصت بهم فاشر من بعد ماشربت سكانها كأس حتف خارج الدور
وأصبح الطير يشدو فوق مصرعهم بالنعى ما بين ممدود ومقصور
كانت بها حمر فرت لما نظرت والخيل غارت بمجزوم ومكسور
وكان فيها أمير يدعى رشدا لكن أفعاله أفعال مغرور
يستعبد الناس رقا كى يفوز بما يسره من سرار عدة الحور
لم يقبل النهى عن بيع الرقيق له عسفا فباء بذنب غير مغفور
وصار فى زمرة الموتى ولاعجب فبغيه واضح للعمى والعور
وقد تواردت الأخبار فابتهجت رجال مصر بنصر غير منكور
وأشرقت أنجم الاسعاد تالية هلال عيد بعود اليمن مشهور

والنصر أعلامه قالت مؤرخة سيف العزيز له فتح بذارفور

هذا وإنا لنختتم الكلام على موقف أبى النصر من منشآت إسماعيل بموقفه ازاء أجلها خطرا وأعظمها شأنا نعنى بذلك مجلس نوابه الذى أنشأه سنة ١٢٩٦ هـ ١١ يونية سنة ١٨٧٩ فتوج بذلك ما بدأه فى السير بالأمة نحو حكم نفسها بنفسها حين أنشأ مجالس الاقاليم سنة ١٢٨٦ على ما تقدم ، فقد أخذت هذه المنشأة بلب أبى النصر وأبى فى تأريخها أن يقف عند الشطرة فى آخر القصيد بل سجل هذا العمل الجليل بمقطعة من ثمانية أبيات جاءت صدورها الثمانية للتاريخ الميلادى وأعجازها الثمانية للتاريخ الهجرى فظفر التسجيل بستة عشر تاريخا ومع هذا احتفظ فى مقطعته بما أراد تأديته من تمجيد لاسماعيل ومدح لنواب الأمة ورجال شوراه وهذه هى : —

أعد لى ذكر من وعت الأمارة لأجمعهم وما احتاجت أماره
منار الفضل إن دعت الدواعى سراة الملك أركان الأداره
لهم فى كل ناشئة ثبات وتدبير به ازدهت الوزاره
خديوى مصر أخبرهم بعهد به زعماء قد عرفت وقاره
وأومأ وده شرقا وغربا الى التحكيم فافهم بالاشاره
هم البصراء حيث تكون شورى لانواع لهم فيها استشاره
وان تك فاهما ولك اختيار لاسرار الهداية والعماره
فصدقنى وخذ قولى بأمن فان القوم بيعوا بالخساره

وهو يعنى بما قاله آخرا ما عصف بهذا المجلس الناشىء من عواصف الحل والتقويض بفعل الحوادث الطارئة القاسية وحظوظ مصر السوداء العاتية

* * *

٢ – أبو النصر وأفراح اسماعيل

لقد شغلت أفراح اسماعيل حيزا ليس بالقليل من ديوان ابى النصر ولاسيما أفراح أنجاله توفيق وحسين وحسن سنة ١٢٨٩ ثم أفراحه حين عاد من الاستانة سنة ١٢٩٠ بفرمان ثبت ماكان أخذه من حقوق بفرمان سنة ١٢٨٣ وزاد عليه، فانه حدث فترة بعد الفرمان الاول اشتغلت فيها الدسائس عليه لدى الباب العالى، وكان أن جارب هذه الدسائس وطلب المزيد فنجح فى حربه ونال الزياده ،ومن ثم أقام للامة هذه الافراح،فكان أبو النصر يتغنى فى الاولى بعظمة اسماعيل وأبهته ويتغنى فى الثانية بعظمة مصر لما يكسب لها من حقوق ، وهأنذا عارض لبعض ما قال فى كلا هذين اللونين من الافراح مكتفيا فى الاولى بما اختص به توفيق لانه كان دون أخويه ولى العهد والخديوى المأمول : —

قال فى عقد قرانه سنة ١٢٨٩ مؤرخا ذلك الحادث السعيد من قصيده

تلك المسرات كم أبدت لنا تحفا ... تبلغ النفس مما تشتهى أملا
وطالما انتظمت فى جيد زينتها ... قلائد تضرب الدنيا بها مثلا
فاستوف حظك فالاوقات قد سعدت ... وكوكب الانس فى ثوب الصفا رفلا
وبالتأهل توفيق سما شرفا ... وطالع السعد وافاه فزاد علا
نجل الخديوى أدام الله دولته ... مستبشرا بسرور دام واتصلا
لا زال يرقى سما العلياء مبتهجا ... فى ملكه بارتقا أنجاله النبلا
ولا عدمنا له طول المدى منا ... تعم أوطاننا أمنا وحسن ولا
لنستفيد التهانى بالمنى أبدا ... كما فرحنا بنادى العقد إذ حفلا
ناد به من رياض المجد منتزه ... على قصور المعالى دوحه اشتملا
تبدو كواكبه فى أفق رونقه ... يزينها بدر ملك بالبها كملا
فى يوم أنس بشير السن أرخه ... بدا الكتاب وتوفيق العزيز علا

وقال ليلة زفافه فى تلك السنة مؤرخا أيضا من قصيدة بعد مطلع غزلى طويل

أيخذلنى قول الوشاة وعذلهم ... وجاه الخديوى ناصرى ومساعدى

فان الامانى للأنام وجوده ومدحى له لازال سعدى وساعدى
مليك علت أنجاله ذروة العلا فدان لعالى مجدهم كل ماجد
وكم حازت العليا فخارا بمجدهم فهم خير أنجال لأكرم والد
وأصبحت الدنيا بهم فى مسرة بشائرها تجلو لدى كل وافد
وأفراح توفيق تبدى نظامها بسلك تعالى عن توهم ناقد
فللأنس أوقات وللعز مظهر وللحظ اسعاف بدرك الفوائد
وهذى أويقات الصفا بابتهاجها تلوح كحسنا زينت بالقلائد
تباهى بها بدر البهـا فكأنه بأفق المعـالى لاح بين فرائد
جليل المزايا سالمتـه يد العـلا وقام له بالعهد أعـدل شاهـد
تسامى به نظم القريض براعة وجيد حلاه زان عقد الفرائد
على أن مثلى قاصر عن مديحه ولو جاء فى البشرى بأعلى القصائد
ولكن بشير اليمن قال مؤرخا تزوج توفيق أحب المقاصـد

ولما أهدى السلطان لولى العهد توفيق النشان المجيدى سنة ١٢٨٩ هـ فرح الملك الخديوى إذ جاء هذا الاهداء دليلا على صفاء الجو بين الخديوى والسلطان لما عهد له من بذول وما وثقه به من صلات كان منها زواج توفيق من البيت السلطانى بثمانى المالك فان زوجه كانت بنت الهامى باشا وبنت أخت ولى العهد إذ ذاك لسلطان عبد الحميد بعد . وقال أبو النصر مهنئا بذلك ومؤرخا له .

حلا مورد الاسعاد والفخر والعلا ودامت مزاياه وقد عم فضله
وفاقت معاليه على كل مورد ورقت معانيه وكم راق نهله
بعز مليك عنـد سلطان ملـكه وناهيك فرع طاب فى الجد أصله
مليـك له جاه رفيـع مؤيد أظل الورى بالأمن لا زال ظله
به دولة الاسـلام زاد افتخارها خليفة خير الخلق والعـدل عدله
تحلى خديوى مصر من در كنزه بعقـد سما قدرا به خص نجله
نشان مجيـدى جليـل بجوهر من الرتبة الأولى وهـذا محله
فقل ما تشأ فى نظم تاريخه وصف نشانا مجيـديا وتوفيق أهله

أما أفراح سنة ١٢٩ فان الخديوي بعد أن وثق صلاته بالباب العالي على ما تقدم سافر في أواخر سنة ١٢٨٩ الى الآستانه في تلك الرحلة التي صحب فيها شاعره أبا النصر والتي تقدمت فيها لصاحبنا تلك القصيدة التي وصف فيها الآستانة وأرخ فيها عيد جلوس السلطان عبد العزيز وتفاوض فيما كان مهد له من طلبات وأجيب اليها وعاد بهذا النصر الى مصر سنة ١٢٩٠ وأقيمت الأفراح كأحسن ما أقيمت لأفراح الأنجال، وكان لشاعرنا في ذلك جولات شعرية متعددات النواحي : —

فبينا تراه يذكر هذا النصر ذاته فينوه به ويؤرخه في مطولات يقول في إحداها بعد مقدمة غزلية طويلة :

دعوني أداوي النفس من لوعة الهوى ... برشف لماه أو بتقبيل خده
ولا تعذلوني حيث عذري واضح ... وسائل دمعي لا يقال برده
على أنني أدركت حسن تخلصي ... بيمن خديوي مصر صادق وعده
مليك عزيز أكسب الملك عزة ... وألبسه تاج الفخار بمجده
وقد مدن الأوطان حتى تقدمت ... وعم رعاياه بوابل رفده
وأحيا لأحياء العلوم مدارسا ... تبدل غي المستفيد برشده
وفي كل عام قد تعود رحلة ... إلى خطة تزهو بطالع سعده
يؤم بها دار الخلافة مخلصا ... إلى ملك وفى له حفظ عهده
وقابله بالبشر محتفلا به ... وحياه إذ وافى باخلاص وده
حباه امتيازات بفرمان حظوة ... تقاصر عنها من مضى قبل عهده
فيا مصر عن تلك المكارم حدثي ... فحظك قد وافى بغاية جهده
وجاء بشير الأنس يروى حديثه ... ونادى ببشرى قربه بعد بعده
يقول أروى الأرجاء نورا تلألأت ... وفي الثغر قد لاحت طلائع جنده
كواكب إقبال بموكب ماجد ... بشير بأعلام البها تحت بنده
ووافق عيد النيل عيد قدومه ... فيا نيل نلت اليمن من فيض مده
فلا زال بالاسعاد في كل رحلة ... يروح ويغدو حائزاً فوق قصده
ولا زال بالانجال في عز ملكه ... يفوز بما يقضي باذلال ضده

ولا زالت الأشعار تهدي لبابه وتحفظ من نقض الحسود ونقده
فما الفكر إلا قاصر عن مديحه وما الشعر إلا واقف عند حده
وأقصى التهانى أن أقول مؤرخا أدام الخديوى صفو مصر بعوده

إذا هو يعد عدة مقطوعات مؤرخة تكتب على الزينات بعابدين والجزيرة كان المكتوب منها على باب عابدين الأول

مصابيح البشائر والتهانى لها فى الملك آيات مبينه
بتشريف المليك نقول أرخ لعودته مسرات بزينه

وكان المكتوب على بابها الثانى :

بدا طالع البشرى وعم سروره وعيد الصفا وانى عن البشر معربا
وداعى التهانى قال يامصر أرخى بعود الخديوى أصبح القطر معجبا

وكان المكتوب على بابها الثالث

كواكب اسعاد تلوح بزينة بعود الخديوى فى مطالع سعده
فيا أنس أقبل يامسرات أرخى أدام الخديوى صفو مصر بعوده

ثم كان المكتوب على باب جسر قصر النيل الموصل الى الجزيرة وكان القدوم موافقا وفاء النيل كما تقدم .

بشير الهنا حيا فأحيا نفوسنا وبلغنا مما نود الأمانيا
وطاف برايات التهانى مؤرخا قدوم الخديوى سير النيل وافيا

وكان المكتوب على باب الجزيرة الأول .

أشرق الملك بازدهاء التهانى حيث وانى أبو الفدا بالسلامه
وابتهاج القدوم قد أرخوه عودت مصر بالقدوم الكرامه

وكان المكتوب على بابها الثانى

يا أهل مصر تسابقوا لحظوظكم واستبشروا
فالسعد قال مؤرخا آل الخديو فاشكروا

٣ — ابو النصر ومواسم اسماعيل

لقد كان مرور المواسم على اسماعيل يهز من شاعره أبى النصر المشاعر ويجعله يصوغ شعوره نحوها فى كثير من القصيد الفاخر الصادر عن إخلاص حق وولاء صميم، ولعل أكثر هذه المواسم تأثيرا فى نفسه واستيحاء لشعره كان عيد ميلاد إسماعيل ولعله لهذه المكانة له عنى بتاريخه أوفى عناية وحفل به أوفى حفل، هاهوذا يؤرخه عشرين تاريخا هجريا لسنة ١٢٩٤ فى مقطعة تبلغ عشرة الأبيات فى كل شطر من أشطارها تاريخ ومع هذا احتفظ للمعنى الصادر عن نفس مخلصة بما تقول بشىء من السمو قال :

خليلى إن الكون لاح ابتهاجه ودوح تهانى الأنس تجلى أزاهره
وبشرى سرور داوم الأمن والمنى أعادت لنا يوما حوى اليمن شاكره
به مولد دامت عنايات من سعى ليبدى تشريفا به وهو زائره
لقد سرنا أنس الخديوى بعوده بأرفع مجد والمعالى تسامره
دعانا بتشريف تهنيه دائما ونبدى ثناء عطر الكون عاطره
لديه وردنا منهلا ، عذب طبعه يروح فى وقت اللقا من يبادره
فما ألطف النادى وما أوضح الندى يروق موافيه من البشر باهره
وإنى ولو أنفقت كنزا ملأته بيانا فكم فى المدح أسرف شاعره
فيا نيلا الاخلاص للفوز بادروا فمولد إسماعيل جاءت بشائره
عوائده تروى أحاديث مدحه صحاحا وأشهاد الأمان مآثره

وإنما قلت بشىء من السمو لأن التعمل لتأريخ التاريخ كان يقتضى من الشاعر كلفة فى اللفظ والمعنى على السواء ولكن إذا أردت أن تستمع فيه الى شرف المعنى وسجاحة اللفظ فأصغ إليه حيث يقول فى التهنئة بهذا الميلاد فى غير تاريخ من قصيدة طويلة .

إذا أطنب المداح فيك وأكثروا فأنت خديوى مصر والفضل أشهر
وآمالنا لا منتهى لورودها على بحرك الطامى وبرك أكبر

وأنت المليك العدل والعدل شاهد رعاياك كم تثنى عليك وتشكر
لك الله إذ أوليتنا كل نعمة بها نتباهى بيننا حين تذكر
بمولدك الأسمى زها الملك وازدهى وسرت به الأوقات والحظ أوفر
وأضحت الى مرماك تصبو نفوسنا وحبك مابين الورى ليس ينكر
وأبدت لياليا كواكب أنسنا كأن عقود الدر فى الجو تنثر

وفى كل موسم إسلامى من كل سنة هجرية كان أبو النصر يرفع الى مقام اسماعيل تهنئته بالموسم منوها بفضله على النهوض بمصر وتمدينها، كمستهل السنة ونصف شعبان وحلول رمضان وليلة القدر وعيد الفطر وعيد الأضحى . على هذا كانت سنته طوال عهد اسماعيل وهذه مقتطفات يسيرة شواهد على تلك المناسبات من مطولاته الكثيرة

قال فى مستهل سنة ١٢٩٠ بعد مقدمة غزلية طويلة مع التاريخ فى آخر شطر منها .

فمن منصفى والناس فى الحب لم تزل لمن حب عذالا وشاة وحسدا
ولكن لى صبرا جميلا على الهوى أكابد أشجانى وأبدى تجلدا
على أننى لا زلت عنهم بمعزل فانى غنى بامتداح أبى الفدا
مليك سما أوج المعالى بمجده عزيز بأنواع المزايا تفردا
جواد حبا الأوطان أحسن حلة وأخصبها أرضا وأكسبها ندى
له منن تحيى الوجود ، وجوده يفيد من استسقى غواديه سؤددا
فمن كفه والمستمدين جوده ترى مصدرا للمكرمات ومورددا
أفاض على الدنيا عوائد بره وشتت شمل المبغضين وبددا
وقد أقبل العام الجديد بسعده يقول له أبشر فلا كانت العدا
فحق على مثلى يبشره به وينظم فى بشراه درا منضدا
ويدخل من باب التوسل شاكرا صنيع مليك بالقبول تعودا
وما دمت حيا لا أزال مؤرخا أهنى الخديوى كل عام تجددا

وقال فى ليلة النصف من شعبان سنة ١٢٩١ بعد مقدمة غزلية خمرية طويلة مؤرخا فى آخرها أيضا .

تقيمني لوعة الشاكي وتقعدني كلما ألزمت أجفاني الأرقا
لكنني لم أزل في أمة أمنت حيث الخديوي حمى أوطانها ووفى
ليث المهابة جار المستجير به في سخطه ورضاه نعمة وشقا
من غيث جدواه أغنى كل ملتمس وبأسه زاد من لا يرعوي قلقا
في كفه لو ترى سيفا يجرده أبصرت برق سحاب ممطر برقا
ولو تخيله ليث العرين إذا ما صال لارفض مما راعه عرقا
برب الندى بر طالما ملئت خزائن لامرىء من بحره ارتزقا
أحيا المآثر حتى قال مادحه هذا الذي ألف الخيرات واستبقا
ساد الألى أثبت التاريخ مالهم من الفخار وأنسى ذكر من سبقا
سارت بسيرته الركبان فامتلأت قلوب حساده من حبها حنقا
لكنه لم يزل بالحق معتصما والله يحفظه من شر ماخلقا
ولا نزال به الآنجال في شرف يسمو بتوفيق عز كامل وبقا
فانه اعتاد إحياء المواسم في أيامه فأرانا عطفه نسقا
في كل شهر إذا مالاح طالعه سمعت كل لسان بالثنا انطلقا
ورأية النصر لازالت مورخة بنصف شعبان صفو المنلك رقى

وقال يهنىء بالصوم وليلة القدر سنة ١٢٩٠ معددا أفضال الخديوي على مصر ومؤرخا أيضا

إذا الصوم وافت بالسرور طلائعه وبدر التجلي فيه لاحت مطالعه
بسطنا أكف الابتهال تضرعا الى منعم تهدى الأنام شرائعه
وفي رونق الشهر الشريف بدا لنا قبول بفضل الله فاضت هوامعه
فصمنا وقمنا واجتلينا بأنسه عرائس روض أطربتنا سواجعه
وفزنا بأوقات الصفا كل ليلة إذا بارق الأنوار ضاءت لوامعه
وصبح الأماني لاح إشراق نوره بيمن الخديوي حيث عمت سواطعه
جليل المزايا كم له من مآثر جميل السجايا كالنسيم طبائعه
له الله كم أسدى وأبدى فوائدا تساوى بها دانى المكان وشاسعه

وما مصر الا الكنز كان مخبأ فأضحت به منها تلوح دقائقه
حباها من الأنهار ماعم نفعه بآرائه والحزم ترجى منافعه
وشاد مبانيها ومدن أهلها بأقرب عهد والزمان مطاوعه
عهدناه برا بالرعايا فبره هو البحر يجرى والأمانى تتابعه
وما رد راج أم كعبة جوده بل البشر يلقاه وتقضى مطامعه
وكم صادفت أدنى الورى منه لحظة فدانت له العليا وسادت توابعه
له فى نظام الملك جند مظفر سما بعده بالنصر والسعد رافعه
تسامت به الأنجال مجدا وسؤددا فاسعادهم فى الكون عز مضارعه
يمدحى له أصبحت أشرف ناظم تروق معانيه وترقى بدائعه
وانى لمهديه لدى كل موسم من النظم مايحلو ويمتاز بارعه
وإن كنت فى أهل البراعة قاصراً مقلا فقد يمشى مع الركب ظالعه
على أن مايروى من الشعر دون ما روته معالى مجده وطوالعه
فأرجو الذى أولاه ملكا مؤبداً يزيده دوما على من يخادعه
ويبقيه بالنصر العزيز مبشراً ولازال بالبشرى تسر مسامعه
ولا غرو ان قال البشير مؤرخا مايك كريم ليلة القدر طالعه

ومع تعرضه لليلة القدر كلما هنأ بشهر الصوم كان يخصها أحيانا بالشعر كأن يقول فيها من قصيدة مؤرخا سنة ١٢٩١

هل يجعل الصبر قوتا فى الغرام سوى صب لديه التدانى والبعاد سوا
إن زاره الطيف لايلقى به رمقا كأنه فى زوايا الاستتار ثوى
أليف سهد له الأفلاك شاهدة بأنه والد صب حليف جوى
خاف الملام فأخفى مايكابده صبرا وما نشرت أيدى الشجون طوى
وهام فى ملك بر يورخه فى ليلة القدر يرقى للعزيز لوا

وقال مهنئا بعيد الفطر لسنة ١٢٩٤ من قصيدة بعد مقدمة غزليه طويلة مؤرخا فى آخرها .

أما كفى لائمى مابى فيعذرنى وما أراد بتعنيفى وماقصدا
أراه فى الحب لايدرى مكابدتى ولو درى لوعة الشاكى لماجحدا
لكننى لست ممن يتقيه ولو أعد لى من تباريح الأسى عددا
وكيف أخشى وجاهى فى التخلص لى مدح الخديوى وحاشى أن اضيع سدى
فهو النصير لشاك عز ناصره وبحر جدواه يروى كل من وردا
وكم له من سجايا كلها همم ومن مزاياه من نال المنى سعدا
مامد كف سؤال للعلا أبدا وطالما مدت العليا اليه يدا
والمجد أشرف مايعزى لمبتهج سبيل من جد فى جد الهوى وهدى
بالحزم أفكاره جاءت بماعجزت عنه الأوائل حتى قوم الأودا
ومدن القطر إذ عمت مآثره برا وبحرا وفى الأقطار كم حمدا
وهذه نعمة من الاله بها ونعمة الله لانحصى لها عدداً
شهر الصيام توالى أنس بهجته والعيد أقبل يهدى بهجة وندى
وقد سما فى سماء اليمن طالعه وكوكب العز أبدى للأنام هدى
وجمل اليوم بالتشريف مبتهجا وبالوقار له عدل البها شهدا
فكان حقا علينا أن نديم له حسن الدعاء ليبقى دائما أبدا
لازال مسترشداً أنجاله ليرى توفيقهم كاملا حسنا ومتحدا
ودام فى حظوة تسمو بهم فرحا والله حافظه ممن له حسدا
وانى كلما كررت مدحته أرى بحار المعانى لاتبل صدى
حيث المدائح لاتوفى بلاغتها بواجب الشكر لو زام البليغ أدا
وتلك تهنئة قالت مؤرخة عيد جميل بتشريف العزيز بدا

وقال فى عيد الأضحى لسنة ١٢٨٩ بعد غزل انتهى بذكر الراح متخلصا منها إلى مايريد ومؤرخا فى النهاية أيضا

لولا اعتصامى بالعزيز جعلتها وردى وهل أخشى ملامة لاحى
وصرفت أوقات الخلاعة كلها مابين راح تشتهى وملاح
أيليق بمن ينتمى لأبى الفدا إلا انتهاج سبيل كل صلاح

ملك مآثره مواسم ملكه فالناس فى فرح به وفلاح
يمحو بوجه العدل كل ظلامة وكذا الدجى تمحى بنور صباح
كم أعزبت أيامه عن عدله حتى غدا فى غاية الايضاح
إذ مدن الاوطان باستحسانه وأنار مصر بدافع الاصلاح
أهديته نظم القريض وانى أرجو القبول فان فيه نجاحى
ولزمت فى الاعياد واجب مدحه لأكون قدوة سائر المداح
لازال فى عيد السرور مقربا حساده للنحر وهى أضاحى
ماخجت الآمال كعبة فضله والسعد لبـاه بوجه سماح
فهو الجدير بما يروق من الثنا والمجد مستغن عن الافصاح
الله أكبر كم أقول مؤرخا عيد الخديوى أكبر الافراح

وأخيرا ثم آخراً كأن شاعرنا أبا النصر لم تكن كل تلك المناسبات لتشفى منه غلة فى مدح الخديوى اسماعيل والتغنى بمآثره ومناقبه فكان فى غير باعث سوى الرغبة فى نقع تلك الغلة يحلو اليه القريدة تلو القريدة بين الفينة والفينة ، وهذه إحدى تلك القرائد كاملة بمطلعها الغزلى على غير ماتعودنا فيما به استشهدنا ، إيفاء لبعض لما لقصائده علينا وعلى الادب من حق ، قال رحمه الله .

أدرلى كئوس الراح رائقة الورد على خالك المسكى أوخدك الوردى
بروض انتزاه غصنه مال صبوة الى قدك المياس أو عرفك الندى
ولا تخش عذالى وزمزم وعاطنى فان ملامى فى غرامك لايجدى
واياك أن تسعى بها بعد مزجها الى غير من يهواك ياغاية القصد
ودعنى ومن يهوى الملام جهالة فانى كفيل للمفند بالرد
وعدنى إذا دار الحديث بزورة وعدنى فانى قد تمسكت بالوعد
وان تر ذنبا فى هواك اقترفته فرفقا فشأن السيد الرفق بالعبد
تعطف ولا تجعل جوابى لن ترى، أقلبى من ماء وقلبك من صلد
وجرد سيوف اللحظ ان رمت قتلى ولا تنس قول الله فى قاتل العمد
ومن لى إذا ما كنت خصمى وحاكمى أيحسن أن أشكو وأنت أخو ودى

على أننى صاد و ثغرك قد حلا فياظمئى هل يدرك الرى بالشهد
وماء حيائى فى لماك علته ولكن على لايفيد ولا يجدى
فلا تتبع قول الوشاة فانهم يريدون قتل الصب بالهجر والصد
وانى ولو ألقوا اليك زخارفا لباق على ودى مقيم على العهد
فلا تبتئس مما يقولون واتئد فانى عن السلوان فى غاية الزهد
أعد الليالى فى انتظارك ساهرا وماكنت معتدا وحقك بالعد
وما اكتفت الايام منى بما جرى من الدمع بل رامت بجاوزة الحد
وما هى إلا طوع من أنا عبده يقلبها ان شاء حرا ال برد
فان هى وافت كان فضلا ومنة وان أعرضت مالى عن الصبر من بد
ومالى وللشكوى ولى خير ملجأ أعوذ به من كل نائبة تردى
مليك ترى العلياء تحت ركابه تود التماس المجد من صاحب المجد
فان خدمت مدت لخادمه يدا ومدت لجدواه إذا التمست أيدى
عزيز هو الجرز المنيع حماية لسيرته ذكر يخلد من بعد
عساكره تدعو البغاة الى الردى وحدتهم تغنى السيوف عن الحد
بنادقهم كالسحب لكن قطرها رصاص وصوت الرعد فى أثر الزند
ومن جور هاتيك المدافع إذ غدت مسلطة باتت عداه على وجد
هو الداورى اسماعيل من فاق أصله بتحقيق تثبيت الوراثة فى العهد
وقد دن الاوطان شرقا ومغربا وبالعدل فيها كم يعيد وكم يبدى
فلا زال بالاقبال فى عز ملكه يجدد رغم الحاسدين ذوى الحقد
تمنيت أن أرقى لأوج امتداحه وأدنو لدى مرأى حاه وأستجدى
فكحلت أجفان اليراع لعله يسير إلى بيت القصيد ويستهدى
فقام بخمس راكبا ساجدا كما أشرت اليه ثم أعرب عن قصدى
وخط كما أمليت والله عدتى فجاء بما يهدى إلى خير من يهدى
ونظم عقداً حاز كل فريدة وفاق على الجوزا بواسطة العقد

فرائد مدح فى سلوك تشكر تصان بعون الله عن فرية النقد
فان من فضلا بالقبول فانها تعرف تنكيرى لدى العلم الفرد
وإن كف بالكف الجزيل نواله جنود التماسى بت أهتف بالجد
وما هو فى الاسعاف إلا كأصله عن الاب كم يروى الندى وعن الجد
ولو أننى أنفقت عمرى مادحا فما أنا إلا من علاه على بعدى
وكم سارت الركبان تشدو بذكره كان لها شوقا الى العلم السعدى

السباعى بيومى
أستاذ بدار العلوم

١٩٤٥ / ٦ / ٢٧